التأصيل للمشروع الإسلامي: مجموعة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي؛ قبل 47 سنة في مدينة مشهد، المحاضرة الثانية: معنى الإيمان (2)

التأصيل للمشروع الإسلامي

مجموعة محاضرات ألقاها سماحة القائد في شهر رمضان، عام: 1974م.

الجلسة الثانية

الإيمان (2)

الجمعة 3 رمضان المبارك 1394 هجرية

29/6/1353 هجرية شمسية

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ)[1] الأنفال هي الثروات التي تتعلق بعامة المسلمين، كالذي غنمه المسلمون في الحرب، والغابات، والسهول والمراتع الكبيرة والمناجم، وبعبارة أخرى هي الثروة التي لا تتعلق بفرد خاص وجماعة خاصة، بل هي ملك المسلمين جميعهم.

في غزوة بدر نال المسلمون غنائم، واختلفوا في ملكية هذه الغنائم، وجاؤوا إلى الرسول(ص)، فنزلت الآية الكريمة: (قُلِ الأَنفَالُ لِلّه والرَّسُولِ) ما معنى «لله» يعني أنها ليست ملكًا لواحد من عباد الله، وما هو لله يعني في الواقع أن يُنفق على طريق الأهداف الإلهية. وليس لله سبحانه حاجة في هذه الأموال، إنما هي في الحقيقة أموال لعباد الله.. يجب أن تنفق في طريق المصالح العامة التي عينها سبحانه. وهذا هو معنى «لله».

وما معنى «والرسول»؟ هل الرسول(ص) قطب في مقابل الله؟ طبعًا لا. ولكن ذلك يعني تعيين مركزية قوية تكون قيّمة على أمور الناس، وإذا لم تتعين هذه المركزية فإن أية جماعة من المدّعين لملكية هذه الأنفال سيقولون إنّ هذه هي أموال الله، ونحن عباد الله، فهي ملكنا. إذن لابدّ أنْ يتولّى عن الله مَنْ يعيّن كيفية توزيعها. ومن هو المخوّل لهذه المهمّة؟ هو «الرسول». والرسول هنا لا باعتباره رسولًا ونبيًا، بل باعتباره يمثّل الحكومة الإلهية. وحين يتوفى الرسول يتولى ذلك الإمام، أي الحاكم الإلهي، وفي عصر عدم تولي الإمام المعصوم حكومةَ الأمة، فإن الذي يدير أمور الأنفال والثروات العامة هو الإمام العادل الذي بيده زمام الحكومة الإسلامية.

(فَاتَّقُوا اللّهَ وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وأَطِيعُوا اللّهَ ورَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

بعد تعيين ملكية الأنفال، يذكر سبحانه ثلاثة واجبات للمؤمنين.

الأول: تقوى ا: (فَاتَّقُوا اَ)، ومرّ بنا ذكر معنى التقوى في الجلسة الأولى.

الثانية: إصلاح ذات البين: (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بِيْنِكُمْ) تجاوزوا ما بينكم من اختلافات لصالح الحقيقة، أولئك الذين يتفوّهون بغير الحقيقة عليهم أن يكفّوا عن مواقفهم. اقضوا على الاختلافات. هناك من يبحثون عن أدنى حجّة ليثيروا الشقاق والنزاع. إذا كنتم أهل حرب فحاربوا العدوّ، لا أن تشتبكوا مع ذات بينكم. مع إخوانكم.. مع أصدقائكم.

التوصية الثالثة تتضمّن القيام بكل عمل صالح وتجنّب كل عمل طالح: (وَ أَطِيعُوا اَ ورَسُولَهُ).

(إِن كُنتُم مّؤْمِنِينَ). الإيمان ما وقر في القلب من ارتباط فكري وعقدي ونفسي بمصدر معين. والإيمان ليس هذا فحسب، فالإيمان ليس ما وقر في القلب فقط، بل لابدّ أن يصدّقه العمل. فالإيمان الحقيقي لابدّ أن يقترن بما يفرضه الإيمان من التزام. الذي يستطيع أن يقول أنا مؤمن با هو من كانت حياته وتصرفاته تختلف عن المُنكِر والجاحِد تعالى. كيف يدّعي الإيمان مَنْ لا يختلف عن المُنكِر؟ كلاهما ظالمان، كلاهما غارقان إلى الأذقان في الماديات، كلاهما على استعداد لأن يسحقا كل فضيلة من أجل أن يظلا يومين أكثر على قيد الحياة، ومن أجل أن يأكلا لقمتين أكثر ثم يملآن الجو بالرائحة العفنة، ومن أجل راحة يومين. مع فارق هو أن المنكِر يقولها صراحة إني لا أؤمن با، وهذا يدعي الإيمان. أي إيمان هذا؟!! الآية الكريمة تقول بصراحة إن شرط الإيمان هو (وَ أَطِيعُوا اَ ورَسُولَهُ) ليس في هذا البيان استدلال عقلي كي تعتريه شبهة. أطيعوا أوامر ا.

وما هي أوامر ا سبحانه؟ هي ما قرره ا سبحانه من التزامات ومسؤوليات وتكاليف وواجبات بشأن علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وعلاقة الإنسان با، وعلاقة الإنسان بالحيوان وبالنبات، إذا كنت مطيعًا لهذه المنظومة من الأوامر تستطيع أن تقول: إني مؤمن، لابدّ أن يجد هذا الإيمان ما يصدّقه من عمل في اللسان واليد والجوارح، وإلاّ فلا جدوى لهذا الإيمان.

الآيات التالية تذكر صفات المؤمنين وشروط الإيمان:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ # الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ # أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) خمس صفات ذُكرت للمؤمنين، قد لا تتوفر هذه جميعًا فينا، لكننا يجب أن نسعى من أجل تحقّقها

في وجودنا.

الأولى: (إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) والوجل هو الخوف. وما معنى هذا الخوف، هل هو من نوع الخوف الذي يعتري المتهم حينما يقف أمام القاضي؟ أم هو من نوع ألطف؟ إذا كان من النوع الأول، فقد يقول قائل: أنا لم أرتكب ذنبًا فلا معنى أن أخاف من الله. لأن الخائف أمام القاضي هو من ارتكب ذنبًا، وإذا كان بريئًا فلا داعي للخوف، غير أن الخوف من الله هو من نوع آخر، أنه خوف ناتج عن معرفة. حين يقف الإنسان أمام ذات عظيمة وحقيقة جليلة فإنه يصاب بالرهبة. طبيعة الإنسان تقتضي أن يقف مرهوبًا أمام الموجود العظيم. هنا الرهبة ليست خوفًا، قد لا يعتريه أي خوف من ارتكاب ذنب، لكنها الرهبة الناتجة عن إحساس بالعظمة وشعور بالصِغَر أمام تلك العظمة. هذا الوجل من الله مطلوب ومفيد. إنه يشعر أنه أمام الجبّار المهيمن، ويدفعه ذلك إلى الالتزام بما أمره الله وينتهي عما نهى عنه، وهذا أكبر ضمان تنفيذي للحركة والسعي لدى الإنسان المسلم والمجتمع المسلم.

لهذا نرى أمير المؤمنين علياً(ع) حين ينتصف الليل يهبّ قائمًا يبكي أمام الله بكاء الحزين ويتململ تململ السليم، ولهذا نرى الإمام علي بن الحسين السجاد يضجّ في بكائه أمام الله، ولهذا نرى رسول الله على عظمته وجلاله يطلب في العشرة الأخيرة من شهر رمضان أن يُطوى فراش نومه، لأنها ليست ليالي نوم بل ليالي عبادة وتضرع وخضوع أمام ربّ العالمين. هذه أعمال تنطلق من معرفة لربّ العالمين. لا كما يقول بعض الجاهلين: إن بكاء هؤلاء العظام وتضرعهم إنّما هو من أجل أن يعلّمونا البكاء والتضرّع!! فهو ليس عند هؤلاء الجهلة بكاء حقيقيًا، بل يتظاهرون بذلك كي يعلّمونا بذلك!! هذا خطأ وجهل، هؤلاء العظام ارتفعوا في معرفة الله حتى امتلأت قلوبهم بالرهبة والخشوع والخضوع، في مثل هذه الحالة ليس الله سبحانه لقلقة على اللسان، وليس كلمة يطلقها الفرد دونما إحساس وشعور بعظمة المسمّى. الإنسان العارف بالله المستشعر لعظمته هو الذي تملأ الهيبة قلبه عند ذكر الله ويستولي عليه الشعور بالصغر أمام عظمة الخالق: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ).

الثانية: (وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) الإيمان في القلب ينمو، مثل بذرة تنمو وتتحول إلى نبتة ثم شجرة ذات جذور ضاربة في الأرض، بحيث لا يمكن اقتلاعها. الإيمان لا معنى له إذا كان مثل ماء راكد لا حراك فيه. الإيمان المتزعزع.. الإيمان الذي يتزلزل ويتناقص على أثر هزّة أو نَزَق مراهقة أو غيرها يمكن أن يُقتلع في يوم من الأيام. المؤمن الصادق الحقّ ليس كذلك، إذ إن قلبه يتلقى الكلمة الصادقة، والموعظة الصائبة بتفكّر وتدبّر فيزداد إيمانًا.

ومما تفيده هذه الآية الكريمة أيضًا أن إيمان الإنسان يزداد بتلاوة القرآن الكريم. وهذا يدحض قول

القائلين بأننا لا نستطيع أن نفهم القرآن، وأن عقولنا لا تبلغ هذا الفهم، وبذلك يرفضون تفسيره وترجمة معانيه. لو كان الأمر كذلك فكيف تعمل التلاوة على زيادة الإيمان؟! يظهر من ذلك أن القرآن ليس مجموعة رموز وطلاسم. القرآن كتاب تجب قراءته من أجل فهمه، وفهمه بهدف تقوية الإيمان وزيادته: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا). هذه هي الصفة الثانية.

الثالثة: (وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) من خصال المؤمنين التوكل على الله سبحانه. ما هو التوكل؟ هل يعني الوقوف مكتوفي الأيدي، وإيكال الأمر إلى رب العالمين؟ لا، ليس هذا معنى التوكل، من لا يسخّر طاقاته لأداء ما عليه من تكاليف والتزامات ومسؤوليات، وينتظر المعجزة الإلهية، فليس بمتوكل.

هذا النوع من التوكل رفضه القرآن حين تحدث عن بني إسرائيل بلغة التأنيب إذ قالوا: (فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)[2]. جالسون في زاوية ينتظرون الفتح ليأتوا بعد ذلك إلى الغنيمة مسرعين. هذا التصرف مرفوض بعيد عن الإنسانية، ولا يليق بالمؤمنين. ما يدور على الألسن أحيانًا من قول: بأن الله سبحانه هو الذي يجب أن يصلح الأمور، وليس بمقدور عباد الله أن يفعلوا شيئًا، فهو خطأ. لو أن عباد الله لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا لما أرسل الأنبياء والرسل، ولما دعا الناس إلى اتّباعهم. بعث الله سبحانه الأنبياء برسالة ثقيلة إلى ساحة المعركة في هذا العالم ليقتلعوا جذور الفساد، وهم (عليهم السلام) من جنس البشر، إذن اعلموا أن الفساد البشري لابد أن يُقتلع بيد البشر.

فما معنى التوكل إذن؟ التوكل هو الاعتماد على الله وعقد الأمل عليه في كل الأحوال. والتوكل بهذه الصورة يبعد مفهومَه عن حالة التخدير ويجعل منه عامل حركة واندفاع. أولئك الذين يواجهون أزمات ومواقف حرجة، ويتعرضون لعدوان، ويرون في الوقت نفسه أنهم عاجزون عن معالجة الأزمة بالوسائل الاعتيادية يتخذون عدة مواقف:

إما أن يستسلموا أمام العدوّ، يقولون: ما دمنا عاجزين عن المواجهة، فلابد من الاستسلام.

وإما أن يستسلموا أمام الظروف القائمة، هؤلاء لم ينبطحوا أمام العدوّ على الظاهر، ولكن انجرافهم مع الأوضاع القائمة إنما هو في الواقع استسلام للعدوّ.

وإما أن يقرروا إنهاء مسيرة حياتهم، فيلجأون إلى الانتحار.

ثمة من يتولّى أمور الحكم في بلد معين ثمّ حين يرى الضغوط الهائلة التي تفرضها عليه قوى الهيمنة العالمية، وما تثيره هذه القوى كل يوم من أعمال تمرّد وشغب في بلاده هنا وهناك، حين يعجز عن اتخاذ الموقف الذي يخرجه من الضائقة يلجأ إلى الانتحار.

هذه هي الطرق التي تواجه الإنسان البعيد عن الله سبحانه حين يواجه طريقًا مغلقًا، إما أن يرفع يد الاستسلام أمام العدوّ، وإما أن ينجرف مع ظروف الواقع المفروض، وإما أن ينهي حياته بالانتحار. لكن الإنسان السائر على طريق الله ينفتح أمامه، حين يواجه طريقًا مغلقًا، سبيلٌ آخر. ما هذا السبيل؟ إنه: التوكل. يقول إني مؤمن بأن الله سبحانه سيجعل من بعد عُسر يُسرًا، وستنفتح أمامي سبل اجتياز الطريق المغلق. فليس هناك لدى الله طريق مغلق، فبقدرته تنفتح المغاليق وتتيسّر السبل.

هل هناك طريق مغلق أكثر مما واجهه المسلمون في غزوة «أُحُد»؟ حين كان نفر من جيش المسلمين منشغلين بجمع الغنائم، شنّ عليهم جيش المشركين هجومًا من جانبين. ذاك النفر ترك سلاحه لينال الغنيمة غافلًا عن العدوّ المتربّص، فواجه هجوم العدوّ الغاضب المسلح. وفي هذه الأثناء شاع خبر مقتل رسول الله(ص)، وهذا ما تفعله جبهة الشيطان عادة لتثبيط عزيمة المؤمنين، يشيعون بأن الأمر قد انتهى ولا فائدة من المقاومة، لكن المتوكلين لا يعبأون بهذه الحرب النفسية، بل ولا يتراجعون جرّاء ما أصاب المسلمين من هزيمة. يرون أن توكلهم على الله سبحانه سوف يخرجهم من المأزق، ويفتح لهم ما انسدّ من طريق. وفي أحُد فرّ مَن فرّ، وثبت من ثبت وهم المتوكلون. هذا هو التوكل.

أولئك الذين يفسّرون معنى التوكل بأنه الوقوف دون حراك أمام المستقبل المجهول رافضين الإيمان بالطاقات الكامنة في الإنسان، ويفهمونه على أنه شطب إرادة الإنسان وقدرته، هؤلاء إما أنهم لم يفهموا معنى التوكل، أو أنهم يفهمونه ولكنهم لا يعونَ معنىً للشرف الإنساني. يريدون تحريف معنى التوكل كي ينتزعوا من الناس أهم عامل من عوامل الصمود على طريق الحق مهما ادلهمّت الخطوب: الإنسان يحلّق بجناحين قويين في مساعي حياته: الأول الصبر، والثاني التوكل. ومن يمتلك هذين الجناحين ينجو من سهام العدوّ.

الرابعة: من صفات المؤمنين: (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ) أرجو الانتباه إلى الفرق بين «يصلّون» و(يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ) لو كانت الآية تقصد بإقامة الصلاة أداء ما فيها من ركوع وسجود، لما لزم تعبير (يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ) ولاكتفت الآية بتعبير «يصلّون» فما معنى «إقامة الصلاة»؟

هناك أكثر من احتمال لمعنى الآية، وقد تكون كلها صحيحة.

الأول: أن تؤدي الصلاة بصورتها الشاملة الكاملة. هذا أحد معاني الإقامة، ومنه قوله تعالد:(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا)[3] أي توجه للدين بشكل كامل وبجميع جوانبه. ولو أُديت الصلاة بكل معانيها وتعاليمها لأدى ذلك حتمًا إلى الفلاح والنجاح. (ولقد تحدثت في ذلك المسجد[4] بالتفصيل قبل أسابيع عن عطاء الصلاة). مَنْ أدى الصلاة حق أدائها تهون عليه المشاكل والصعاب.

ولقد سمعتم في حياة أولياء الدين أنهم إذا واجهتهم شدّة يلجأون إلى الصلاة. سمعتم أن رسول الله(ص) حين تتفاقم الأزمات والمصاعب يقول: «أرحنا يا بلال». أو يقول: «أبرِد أبرِد يا بلال»[5] ففي الصلاة الراحة وفيها البرد والسلام. ومن المؤكد أن المؤمنين ينالون ما وعدهم الله سبحانه إن أقاموا الصلاة بهذا المعنى.

الاحتمال الآخر من إقامة الصلاة، هو أن المؤمنين يقيمون الصلاة في مجتمعاتهم. بعض الناس ينصرفون إلى إقامة صلواتهم ونوافلهم الفردية دون الاهتمام بالحالة الدينية في مجتمعاتهم. يقولون نحن مكلّفون بأن نؤدي واجبنا بأداء الصلاة، فلا شأن لنا بالآخرين. مكلّفون بأن ننقذ أنفسنا من الغرق، وهذا أقصى ما نستطيع، فلا يسعنا إنقاذ الآخرين. هذا اللون من التفكير ليس من الإيمان في شيء. الإيمان يكتمل حين تحملُ همّ الدين على الصعيد الاجتماعي.

أرجو أن لا ينصرف ذهنكم إلى قوالب الألفاظ، وأن لا تفهموا من إقامة الصلاة في المجتمع أن تجعل تاركًا للصلاة مؤديًا لها، بل افهموا إقامة الصلاة أن تجعل المجتمع مرتبطًا بالله وبطريق الله سبحانه. أن تجعل المجتمع يعبد الله دون سواه: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وأن يكون اعتماد المجتمع على الله دون سواه، وأن يتبرأ من أئمة الفساد المغضوب عليهم ومن أتباعهم الضالين. هذه هي إقامة الصلاة.

ولو اتجه السعي نحو إقامة الصلاة بهذا المعنى فذلك يعني السعي على طريق عبودية المطلق الحق، والسعي لاقتلاع جذور الفساد، والعمل على إزالة أصنام الذاتية لِخلقِ وحدة اجتماعية وإنسانية بين المسلمين وبين أبناء البشرية جميعهم.

الخامسة: الإنفاق (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)، في موضوع الإنفاق تحدثت من قبل كثيرًا، وهنا أكتفي بالقول إن الإنفاق ملء الفراغات وسدّ الاحتياجات. لو جئتم لطلاء جدران مسجد هو مطليّ أساسًا، فليس ذلك بإنفاق، لأن الجدران ليست بحاجة هنا إلى طلاء، فالإنفاق ما يسدّ ثغرة ويلبّي حاجة.

وما معنى «مما رزقناهم»؟ أي مما رزقهم ا سبحانه من مال، ومن عُمر، ومن ولد، ومن جاه، ومن إمكانيات بدنية وفكرية وبيانية، ينفقون من كل هذا الرزق وهذه من صفات المؤمنين.

أيها الساعي فيما تراه إنفاقًا؟ هل ما تمدّه من موائد غنية بألوان الطعام والشراب، وتدعو إليها الموسرين هو من الانفاق؟! ويا أيها الخطيب الذي تجهد نفسك في الحديث وتبذل طاقتك في الخطاب، هل كل ما تتفوّه به هو إنفاق، أم لابدّ أن يُبذل هذا الجهد فيما يحتاجه المخاطبون؟ ويا مَنْ تنفق من ماء وجهك ومن مكانتك لتتوسّط لهذا وذاك، هل فكرت في شرط الإنفاق؟ وأنت يا من تبذل المال باسم الدين، هل ذهب هذا المال لمعالجة تحدٍ أو ملء فراغ، أم ذهب هدرًا؟

(أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) وأرجو أن تتذكروا ما قلت بأن المغفرة من ا سبحانه تتجه نحو التئام ما نزل بالروح من إصابات وجروح. ولهؤلاء المؤمنين مغفرة، ولهم رزق كريم شريف، دونما ذلة واستجداء.

قد يُرى مجتمع أنه يعيش في رفاه ورغد، لكنك لو تفحّصت حياته لرأيته قابعًا في ذلّة وعار ومسكنة. المجتمع الذي يعيش برفعة وشرف وطُهر في حياته هو المجتمع المؤمن الذي يتمتع برزق كريم. كل الشعارات التي تطلقها المدارس الأرضية بشأن كرامة الشعوب وبشأن السلام والحرية والرفاه تتحقق في المجتمع المؤمن، لا بالصراع وسفك الدماء بل بالأخوة والتكافل وبرفع المستوى الثقافي لأفراد ذلك المجتمع.

والحمد رب العالمين.

---

[1] ـ الأنفال/ 1

[2] ـ المائدة/ 24

[3] ـ الروم/ 30

[4] ـ في مسجد الكرامة بمدينة مشهد.

[5] ـ من لا يحضره الفقيه، أبواب الصلاة وحدودها، باب مواقيت الصلاة، ح 672.